5

الباب الخامس

حياة اللاجئين في عمان

وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين

لقد استمر الناس في السير والارتحال من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية في فلسطين ليس معهم سوى ما يلبسون، غير قادرين على حمل أي شئ. ولم يستخدم الصهاينة القوة فقط في طرد الفلسطينيين ولكنهم إستخدموا كذلك الخوف المتولد عن مذبحة دير ياسين ومذابح عديدة غيرها، مما ولد الذعر والقلق بين الفلسطينيين.

كان الفلسطينيون يخبطون ببعضهم البعض ويتدافعون في الضفة الغربية وقطاع غزة وعبر مناطق نهر الأردن ولبنان وسوريا، وكانوا منهكين نتيجة لنقص الطعام والماء، وتفرق أفراد العائلة بعضهم عن بعض. مع ذلك كانوا يظنون أنهم من الممكن أن يعودوا خلال بضعة أسابيع أو بضعة شهور على الأكثر إذا إنتهت الحرب. ولكن ذلك أصبح دون جدوى بعد أن وضعت الحرب أوزارها، حيث تلاشى الأمل في العودة.

لقد كان الحرفيون ورجال الأعمال والخبراء أسعد حظاً من غيرهم، حيث تمكنوا من العمل في المناطق التي هاجروا إليها. أما العمال غير المهرة والفلاحون اللذين فقدوا أراضيهم لم يكن لديهم وسيلة لكسب العيش منذ فقدوا منازلهم وأراضيهم وممتلكاتهم، بل وكل شئ.

بعد أن فقدوا الأمل في العودة المبكرة، إنتقل معظم الفلسطينيين إلى مخيمات اللاجئين التي أقيمت بمساعدة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا)، على الأرض المتاحة في الأردن ولبنان وسوريا والضفة الغربية وقطاع غزة. لقد كانت ظروف المعيشة في هذه المخيمات سيئة للغاية، حيث يتكدس عدد من العائلات في خيمة واحدة أو في غرفة واحدة، كان هناك توزيع للغذاء في هذه المخيمات، إلا أن كمية الغذاء كانت لا تكاد تكفي سد الرمق. ولقد بدأت بناء المخيمات في الأردن في أماكن بعيدة، في مناطق حارة غير مأهولة حول وادي الأردن أو في الصحراء الموجودة على أطراف عمّان. وبدأ الناس يتحركون إلى هذه المخيمات، حيث لم يكن هناك أي مكان آخر يذهبون إليه.

❖ ❖ ❖

من حسن الحظ أن والدي كانت له حرفة حيث كان يعمل صانع أحذية منذ فترة طويلة، وعلى ذلك إختار والدي البقاء في عمان. حيث إستأجرنا شقة صغيرة جداً في منطقة قريبة من وسط المدينة، وليست بعيدة عن مسجد اللويبدة. لقد كانت شقة قديمة مكونة من غرفة نوم واحدة ومطبخ وحمام. لقد قمنا بتقسيم غرفة النوم بألواح من الخشب لنفرز مكاناً لبعض أقاربنا حيث جهزنا غرفاً منفصلة لوالدي ولنا نحن الأطفال وثانية لجدتي لأمي وخالاتي وثالثة لخالي وزوجته. كما جهزنا ركناً آخراً منفصلاً عند

مدخل الشقة حيث كان أبي يمارس عمله فيه، حيث إستأجر عدداً من العمال لإصلاح وعمل الأحذية. كان معظم زبائنه من الأصدقاء القدامى من الرملة، إذ كانوا زبائن في دكانه في الرملة.

ولم تكن حياتنا سهلة، فما كان يكسبه والدي لم يكن كافياً لمعيشتنا. لذلك بدأت أمي العمل في خياطة ملابس للنساء والأطفال. كما كانت تقوم بخياطة ملابس للأقارب والمعارف حسب الطلب، ولقد ساعدها في ذلك ما تعلمته وما إكتسبته من خبرة في هذا المجال قبل زواجها من أبي.

❖ ❖ ❖

لقد أصدرت هيئة الأمم بطاقات "كروت" مواد غذائية للاجئين، للمساعدة على ظروف المعيشة الصعبة والسيئة. كانت تسمى (كروت المؤن)، وبهذه الكروت كنا نحصل على بعض المواد الغذائية كل شهر. كان يوجد مركز توزيع بكل مخيم. كما كان يوجد بعض المراكز في عمان تقوم بتوزيع المعونة على من يسكنون في بيوت مؤجرة، مثلنا.

كان المنظر عند مراكز التوزيع سيئاً للغاية، حيث كان العديد من الناس ينتظرون في طوابير وصفوف طويلة. كان يتعين علينا أن نحصل على حصتنا في وسط هذا العراك والصراخ.

يبدأ التوزيع من الصف الأول، وكانت البطاقة تختم بعد التحقق منها. ويحتاج الأمر إلى ختم آخر للحصول على أول مادة، كالدقيق

مثلاً. ثم يستمر الأمر بالنسبة للصف الثاني. كانت عملية إستلام حصتنا تستغرق يوماً بكامله، كانت تلك الحصة صغيرة. لقد كنت صغير السن في ذلك الوقت، وبرغم ذلك فقد قمت بإستلام حصتنا عدة مرات.

كانت حصة كل فرد شهرياً عبارة عن 10كغم دقيق، 600 جم سكر، 500جم أرز، 375 جم من الزيت النباتي وبعض المعلبات، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك كمية صغيرة من الفول أو العدس الذي كان يسمى " لحم الفقير" .وكان هذا هو المصدر الوحيد للبروتين. كانوا يقولون أن هذه الكمية كانت تساوي تلك التي كانت تعطى للأسرى أثناء الحرب العالمية الثانية.

هذه المواد لم تكن صغيرة الكمية فقط، بل كانت نوعيتها رديئة جداً، حيث كان بعضها لا يمكن أكله، وغير صالح للأكل الآدمي. في العديد من المرات كنا نجد بعض الحشرات في الدقيق، ذلك لأن الدقيق كان موضوعاً في أكياس و شوالات مخزوقة مما يسهل حركة الحشرات إلى داخل الأكياس. كان يتعين علينا أن نزيل هذه الحشرات من الدقيق بالتنخيل قبل أن نعده لعمل الخبز، أما الغذاء المعلب فكان في معظم الأحيان قد إنتهت صلاحيته منذ فترة طويلة، والغذاء الموزع كان غذاء نضطر للتخلص منه ورميه لعدم صلاحيته لذلك كان علينا أن نشتري نوعية أفضل من الدقيق والأرز بعد أن نقوم ببيع المواد الموزعة علينا. كانت هناك سوق

سوداء لهذا الغذاء الموزع، وكان هناك بعض الأفراد المتخصصين في شراء هذا الغذاء من النوعية الرديئة.

❖ ❖ ❖

كان يتم توزيع الحليب من خلال الأنروا وغيرها من وكالات الإغاثة، كل يوم فيما عدا أيام العطل. كان عليّ أن أُحضر الحليب يوميا في الصباح الباكر قبل ذهابي إلى المدرسة. كانت مراكز التوزيع توجد في عدة أماكن من وسط عمان، كنت أحمل الحليب في إناء صغير له يد أحمله منها. وفي أيام الطقس البارد كنت أرتجف من البرد ومن الحمل الذي أحمله.

لم نكن نستخدم كل الحليب في غذائنا فقط، بل كنا نستخدم بعضاً منه في عمل اللبن وبيعه كوسيلة لكسب بعض النقود. لم تكن الكمية كبيرة، لكنها كانت تساعد ولو قليلاً. لقد كان من مهامي، على صغر سني، بيع اللبن. ولذلك تعلمت كيف أساوم، وكيف أبيع بسعر مرتفع.

لم أكن أجد صعوبة أو غضاضة في الذهاب إلى مركز توزيع الحليب في الصباح الباكر من كل يوم، حيث كنت صغيراً. لكنني عندما كبرت بدأت أحس بمأساة فلسطين، وأشعر بالمهانة تنمو في داخلي، ولربما كان هذا الشعور بالمهانة هو ما يشترك فيه

الفلسطينيون الذين أصبحوا لاجئين. إلا أنني أعتقد أن الغضب بدأ أيضاً ينمو متوازياً على الجانب الآخر من هذا الإحساس. ولم يكن هذا الغضب موجهاً ضد الصهاينة فقط، بل ضد المجتمع الدولي كذلك، الذي يسمح بخلق مثل هذه المأساة. كان الموقف أننا لم نحس أن المجتمع الدولي كان يُعير الفلسطينيين أي إهتمام.

على الرغم من تلكم الظروف المهينة، كنا نعض بالنواجذ على هذه البطاقات. ولقد تعلمنا أن نحافظ عليها كما نحافظ على مفتاح منزلنا، وذلك لأن هذه البطاقات كانت الوثيقة الوحيدة التي تثبت أننا فلسطينيون، وتثبت أحقيتنا بأرضنا في فلسطين.

❖ ❖ ❖

لقد حيكت عدة مؤامرات لتمييع القضية الفلسطينية. لقد كانت هناك عدة تحركات لتهجير الفلسطينيين إلى كندا أو أستراليا "لحل" الموضوع الفلسطيني، كما كانت هناك تحركات أخرى لدفع مبالغ مالية لتمكين الأسر من إقامة مشروعات إنتاجية صغيرة مقابل تسليم بطاقات تسجيل اللاجئين. وربما يفكر البعض أن ذلك كان إقتراحاً كريماً في ظل المهانة في ذلك الوقت، إلا أن كل الفلسطينيين رفضوا العرض وإحتفظوا ببطاقاتهم. ليس ذلك لأننا كنا نود أن نستمر كلاجئين إلى الأبد، ولكن لأن هذه البطاقة كانت

الوثيقة الوحيدة التي تثبت أننا فلسطينيون وحتى لا يضيع حقنا في أرضنا في فلسطين، ولهذا السبب كان إمتلاك البطاقة أحد السمات التي إرتبطت باللاجئين الفلسطينيين.

❖ ❖ ❖

- أول صورة شخصية للمؤلف، أخذت عام 1954.

أيام المدرسة الإبتدائية

بالرغم من حياة اللاجئين القاسية في عمان إلا أن أيام المدرسة الإبتدائية والثانوية كانت من أمتع أيام حياتي، فبعد فترة قصيرة من وصولنا إلى عمان، بدأت بالذهاب إلى الحضانة، ثم بعد ذلك إلى المدرسة الإبتدائية. لقد كانت تقع بجوار مقر قيادة الجيش الأردني، وكانت من أقدم المدارس في الأردن. كانت تسمى المدرسة العبدلية. بدأت في الذهاب إلى تلك المدرسة في تشرين أول/أكتوبر 1948.

كانت تلك المدرسة الإبتدائية مقامة على تل، وكانت مكونة من ستة صفوف. كان في الصف الأول ما يزيد على 90 تلميذاً، وكان عدد التلاميذ في هذا الصف أكبر من عددهم في أي صف من

الصفوف الخمس الأخرى، والتي كان عدد التلاميذ فيها عادة أقل من 50 تلميذاً. ونتيجة لظروف الحياة في عمان، كان عدد التلاميذ يقل كلما إتجهنا إلى الصفوف الأعلى. كان من الطبيعي بحكم الحاجة أن يتوجه التلاميذ إلى العمل في ذلك الوقت.

عندما إلتحقت بالمدرسة الإبتدائية، ربما كنت التلميذ الفلسطيني الوحيد، إلا أنه عندما وصلت إلى الصفوف الأعلى، كالصف الرابع أو الخامس، إزداد عدد التلاميذ الفلسطينيين بالمدرسة. وعندما تخرجت من المدرسة الثانوية وصل عدد الفلسطينيين بالمدرسة إلى ما يزيد عن نصف عدد التلاميذ.

لم تكن هناك نزعة تعصبية ضد التلاميذ الفلسطينيين من زملائهم الأردنيين أو العكس. فقد كان هناك شعور بالأخوة بين الشعبين بالإضافة إلى تعاطفهم معنا بالمأساة الإنسانية التي نعانيها. وفي الحقيقة يجب أن نتجاوز عن هذه النزعة التفريقية ونقوى أواصر الأخوة والتقارب والتوافق بين الأهل والشعب الواحد على ضفتي نهر الأردن. وذلك لأن الصهاينة بدءوا في إستغلالها حيث يقولون بأن الفلسطينيين يتعين عليهم أن يقيموا دولتهم على الضفة الشرقية لنهر الأردن. في محاولة خبيثة لزرع الفتنة بين شعبين شقيقين ولتبرير الإستمرار في إحتلال فلسطين. يجب علينا ألا نقع في هذا الفخ. فإذا ما ركزنا على أن الفلسطينيين والأردنيين أخوة يشكلون شعباً واحداً مع تمسك الفلسطينيين بحق العودة المقدس والعمل الدؤوب لتحقيقه فإن ذلك سيكون رداً كافياً على المخطط الصهيوني في ما يسمى التوطين والوطن البديل.

❖ ❖ ❖

لقد درسنا في أيام المدرسة الإبتدائية اللغة العربية والقرآن والرياضيات والرسم والتربية الرياضية. وتضمنت دراسة اللغة العربية دراسات في الخط العربي. و بإرتفاع الصفوف، أضيفت الجغرافيا والتاريخ والدين الإسلامي واللغة الإنجليزية والهندسة. وكان يطلق على مدرس أو أستاذ الصف " المربي"، وهي كلمة تعني أكثر من أستاذ أو مدرس.

كان العام الدراسي في الأردن يبدأ في أول شهر أيلول/ سبتمبر. وفيه فصلان دراسيان. وكنا نقدم امتحانات مرة قبل نهاية الفصل الدراسي الأول، ومرة ثانية قبل نهاية الفصل الدراسي الثاني. وكلما تقدمت في الصفوف، إزدادت الإمتحانات صعوبة.

كنا نرتب في كل صف تبعاً لدرجات كل مادة، وطبقاً للمجموع الكلي للدرجات. كان ترتيبي يتراوح ما بين الخامس والعاشر بالنسبة للمجموع الكلي للدرجات. ومن البداية كنت دائماً على قمة صفي في مادة الرياضيات.

في المدرسة الإبتدائية كان النظام لا يسمح بإنتقال التلميذ إلى الصف الأعلى إذا رسب في إحدى المواد، لذلك فإن بعض التلاميذ كانت تصل أعمارهم إلى 15 عاما عندما أنهوا المدرسة الإبتدائية، وكانت تصل أعمار بعضهم إلى 20 عاماً عند تخرجهم من المدرسة الثانوية.

كنت دائماً أصغر التلاميذ سناً وحجماً وطولاً في كل صف. وعندما بدأت بالذهاب إلى المدرسة كان عمري أقل من ست سنوات طبقاً لتقدير السن الذي حصلت عليه بدلاً من شهادة ميلادي التي تركتها في الرملة عند الهجرة. كما كنت كذلك أصغر التلاميذ حجماً وأقصرهم طولاً، لذلك عندما كنا نقف في طابور الصباح كنت دائماً في أول الطابور، ولأني كنت صغيراً، كان رفاق المدرسة يرفضون أن يسيروا معي وذلك لأنهم كانوا يعتبرون أنني أبدو طفلاً وحتى لا يظن الناس أنهم في صفوف دنيا، وكانوا يقولون لي: لا نريد أن نسير مع طفل، ابتعد عنا. وقد استمر الوضع كذلك بل ازداد في المدرسة الثانوية.

مع أنني كنت أصغر التلاميذ وأقصرهم إلا أنني كنت منافساً عنيداً لهم.

❖ ❖ ❖

يحكى أنه عندما كنت طفلاً صغيراً جداً كان لدي دمّل وكان لابد من إجراء عملية جراحية صغيرة لإزالته، ولقد أجريت لي هذه الجراحة دون أي مخدر موضعي، كل ما في الأمر أن والدي نظر إلي وحدق في وجهي وطلب مني ألا أصرخ. صحيح أنني لم أصرخ لكني لم أستطع أن أوقف دمعي المنهمر.

❖ ❖ ❖

لقد كنت محباً للإستطلاع وشقياً، كشقاوة كل الأطفال، أثناء طفولتي. ففي أحد الأيام أجرى المدرس لنا إمتحاناً مفاجئاً في

الجغرافيا، ومع أن التلاميذ طلبوا من المعلم أن يؤجل الإمتحان للأسبوع المقبل، إلا أنه لم يغير رأيه. وبعد دقائق من بداية الإمتحان بدأت في عراك مصطنع مع صديقي الذي يجلس بجواري، كنت أجلس في المقعد الأول، لقد تراشقنا بالحبر على أوراق إجابة بعضنا البعض وعلى ملابسنا، فانشغل المدرس في إيقاف هذا العراك، مما إضطره إلى إلغاء الإمتحان. أما نحن الإثنان، صديقي وأنا، فلقد تعرضنا للتوبيخ والضرب بعصا المعلم. إلا أن بقية التلاميذ كانوا سعداء لإلغاء الإمتحان. ومما يجدر ذكره هنا أنني كنت أحصل على علامات عالية جداً في مادة الجغرافيا وكنت أحبها كثيراً.

❖ ❖ ❖

في تلكم الأيام لم تكن المدارس الإبتدائية الحكومية مختلطة، وعليه فإن المدرسة التي كنت أذهب إليها كانت للذكور. إلا أن بعض المدارس الخاصة كانت مختلطة على مستوى المرحلة الإبتدائية فقط، لكن معظم المدارس كان التعليم فيها منفصلاً، على الرغم من بعض المنادين بالتعليم المختلط، وذلك بسبب المعارضة القوية من القوى المحافظة. وعلى ذلك لم يكن هناك إتصال أو نقاش بين الصبيان والبنات في المدارس.

كان الأطفال من الصبيان والبنات يلعبون مع بعضهم البعض حول منازلهم، إلى أن يصلوا إلى عمر دخول المدرسة، وهنا يصبح

من المستحيل عليهم حتى التحدث مع بعضهم البعض. وكان الآباء يصبحون مشدودين عندما يصل أبناؤهم وبناتهم إلى سن المراهقة. وكانت كل أم تنتظر بقلق عودة إبنتها إلى المنزل، وكانت البنت تؤنب إذا ما رجعت إلى المنزل متأخرة بعض الدقائق عن الموعد بعد الخروج من المدرسة. كانت الأسرة في ذلك الوقت في غاية الحسم، إلا أن الناس أصبحت الآن أكثر مرونة.

❖ ❖ ❖

إن والدي الذي كان خبيراً في تقنيات صناعة الأحذية أسس، مع أبناء عمومته، مصنعاً صغيراً لصناعة الأحذية في عمان، كان يعمل فيها حوالي عشرين عاملاً. إلا أن هذا المشروع لم يستمر طويلاً، حيث أفلست الشركة، ولقد كنت في ذلك الوقت في الصف الرابع الإبتدائي، وكان والدي نشطاً في التفتيش عن عمل له، إلا أن ذلك كان صعباً في هذا الوقت. وأخيراً تخلى عن فكرة العمل كصانع أحذية، وقبل العمل في وظيفة سائق عندما علم أن هناك حاجة إلى سائق.

❖ ❖ ❖

لقد كانت حياتنا ميسرة بعض الشيء، على الرغم من الصعود والهبوط في عمل والدي، حيث كانت مصاريف المدرسة غير مرتفعة، ذلك أنها كانت مدرسة حكومية. إلا أن العبء كان كبيراً

على بعض الأسر الفقيرة، خاصة فيما يتعلق بشراء الكتب الجديدة. وفي أول كل عام دراسي، كانت تباع الكتب القديمة للتلاميذ الذين لا يستطيعون شراء كتب جديدة. وعندما كان هؤلاء التلاميذ ينتقلون إلى صفوف أعلى كانوا يبيعون تلكم الكتب مرة أخرى.

❖ ❖ ❖

في هذه الظروف قمت بأول عمل لي في العطلة الصيفية عندما كنت في الصف الرابع. كان هذا العمل في دكان صغير للأحذية. وبعد شهرين ونصف كنت قد تعلمت كيف أصنع الأحذية

- في زيارة في التسعينات للعبد النحاس، صاحب المحل الذي عملت عنده في الخمسينات.

من الألف إلى الياء. وكنت أعمل من الساعة السابعة صباحاً إلى السابعة مساء. وكنت أمارس كل الأعمال بما في ذلك كنس وتنظيف الدكان. وكنت أتقاضى على ذلك عشرة قروش أردنية أسبوعياً (ما يعادل تقريباً ثلث دولار أمريكي، يعادل أقل من 50 يناً يابانياً) وفي تلكم الأيام كنت أستطيع أن أشتري بهذا المبلغ 250 غم من اللحم أو خمسة عشر بيضة.

❖ ❖ ❖

إن فصل الشتاء في عمان بارد نوعاً ما إلا أن الثلج لا يتساقط دائماً. ولم تكن هناك في ذلك الوقت وسائل للتدفئة في صفوف المدرسة، كانت معظم بنطلوناتي وقمصاني في ذلك الوقت من صنع والدتي. لم نكن نقدر على تكلفة شراء معطف، ولذلك قامت والدتي بصنع معطف لي من بطانية من تلك البطانيات التي كانت توزعها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين. وكنت أخجل من لبس هذا المعطف، إلا أن والدتي كانت تغريني على لبسه بقولها بأنه مصنوع من أفضل أنواع الصوف، وأنه لن يفكر أي شخص أنه مصنوع من بطانية!!

❖ ❖ ❖

كانت فرص العمل قليلة جداً للأطفال حتى لو أرادوا العمل بعض الوقت. فالأعمال لم تكن في الواقع متاحة للبالغين. لقد كنت محظوظاً في هذا الإطار، ذلك لأنني كنت أستطيع أن أعمل

بعض الوقت في العطلة الصيفية في محلات أصدقاء والدي وأقاربه.

- في مصنع الجلود والحقائب، صيف 1959.

في أيام المدرسة الثانوية عملت في مصنع للمربيات والعصائر، ثم في مصنع للحقائب ومنتجات الجلود. كنت أقضي الفرصة الصيفية في كل عام وأنا أعمل، كان الهدف من عملي هو الحصول على بعض المال لمساعدتنا على العيش، إلا أنه من وجهة نظر والديّ وخاصة والدتي أنهم كانوا يتخلصون منا بعيداً عن المنزل حتى نخفف من تعبها في رعاية الأطفال خلال عطلة الصيف الطويلة. وعملي خلال الصيف أعطاني الفرصة للتعرف على الناس والمجتمع، مما ساعد كثيراً في بناء وتقوية شخصيتي.

❖ ❖ ❖

كنت ممتازاً في الرياضيات

بعد التخرج من المدرسة الإبتدائية نقل جميع تلاميذ الصف السادس الإبتدائي من مدرسة العبدلية الإبتدائية إلى مدرسة رغدان الثانوية. وفي أول يوم للعام الدراسي ذهبنا من مدرسة العبدلية إلى مدرسة رغدان الثانوية في طابور، سيراً على الأقدام. كانت هذه المدرسة من أشهر المدارس الثانوية الحكومية في عمان.

كان مبنى المدرسة مكوناً من طابقين، ويقع على سفح جبل. كانت عمان في تلك الفترة تتوسع إلى المناطق الجبلية حولها. وكان بعض المزارعين يزرعون القمح حول المدرسة، وكانت الأعشاب والزهور البرية تملأ الجبل والوادي، وكنا نسعد بأكل بعضها. حول نفس المنطقة كان يوجد معهد للمعلمين بالإضافة إلى مدرسة صناعية للتدريب المهني، وقريباً منها كانت كلية الحسين المدرسة الثانوية للذكور في عمان في ذلك الوقت.

كان يوجد بالمدرسة حوالي ستين مدرساً. وكانت تضاف مواد أخرى كلما إنتقلنا إلى الصفوف الأعلى، وفيما يتعلق بالعلوم كنا ندرس الفيزياء في الصف الأول الثانوي ثم أضيفت الكيمياء في الصف الثاني الثانوي، أما مادة الأحياء فقد أضيفت في الصف الرابع الثانوي، كما أضيفت موضوعات شتى في اللغة العربية مثل النثر والشعر والنحو والأدب. لقد كنت ممتازاً في مواد الرياضيات، وعلى الأخص في الهندسة. وكان ميلي إلى مواد

الكيمياء والأحياء والتاريخ والتربية الرياضية أقل درجة. لقد كانت حصص التربية الرياضية تبدأ عادة بتمرين التسخين لمدة خمس دقائق، ثم كان المدرس بعد ذلك يقول ضاحكاً "ليخرج العواجيز" حثاً لنا على اللعب. ما أكثر ما خرجت بعيداً عن بقية تلاميذ الصف، حتى أنضم إلى التلاميذ المرضى، أو الذين كانوا يتظاهرون بالمرض. لقد كنت ألعب بحرية، بينما بقية التلاميذ يحضرون دروس التربية الرياضية. وربما كان أحد أسباب ذلك هو صغر حجمي وصغر سني. في هذه المرحلة أصبحت الفروق في العمر أكبر وأكثر وضوحاً، فكنت أحس بالفارق لأنني أصغر التلاميذ في الصف.

لقد أصبحت مشهوراً، عندما كنت في المرحلة الثانوية، ذلك لأن ترتيبي كان دائماً الأول في مادة الرياضيات. أحياناً كان يقصدني بعض التلاميذ من الصف الأعلى ليستشيروني في حل بعض الأسئلة الرياضية المعقدة. وفي إحدى المرات سمعت أحدهم يقول أن بكر ممتاز في الرياضيات إلا أنه سيرسب في المواد الأخرى.

إلا أنني بذلت مجهوداً في جميع المواد، وتمكنت من الحصول على شهادة إتمام المرحلة الثانوية.

وأثناء أيامي في كل المرحلة الثانوية، كان ترتيبي بإستمرار حول الخامس في الصف المكون من 45 أو 50 تلميذاً. أما في آخر عام

فقد كان ترتيبي الأول.

كان من الصعب جداً في الأردن الحصول على شهادة التخرج. لذلك كانت المنافسة قوية، وكان يرسب العديد من التلاميذ. وفي الصف الأخير من المدرسة الثانوية كان يتعين علينا دخول الإمتحان الحكومي، ولا نحصل على شهادة التخرج إلا بعد إجتياز هذا الإمتحان. بعد ذلك نستطيع أن نلتحق بأي جامعة في العالم.

في الإمتحان الحكومي كان يتعين علينا أن ننجح في خمس مواد على الأقل، حيث يستطيع الطالب أن يتقدم للإمتحان كحد أقصى لثماني مواد، وعدم النجاح في خمسة مواد فيها يعني الرسوب وعدم تمكن التلميذ من التخرج من المدرسة الثانوية.

كانت هناك أربعة تقديرات هي : ممتاز وجيد جداً وجيد ومقبول.

تقول شهادة تخرجي من المرحلة الثانوية أنني نجحت فيها في سبع مواد ما يلي: اللغة العربية بتقدير مقبول والرياضيات بتقدير ممتاز والفيزياء بتقدير جيد جداً والدين بتقدير مقبول واللغة الإنجليزية بتقدير جيد جداً وتاريخ العرب بتقدير مقبول وجغرافية العالم العربي بتقدير جيد جداً.

دعني الآن أشرح نظام التعليم في الأردن. المرحلة الثانوية في الأردن كانت من خمس سنوات، تسبقها المرحلة الابتدائية وهي من

ست سنوات. وفي بعض البلاد الأخرى كمصر مثلاً لا يستطيع التلاميذ الإلتحاق بالجامعة إذا كان مجموع سنوات الدراسة هو أحد عشر عاماً فقط أي ست سنوات في المرحلة الإبتدائية وخمس سنوات في المرحلة الثانوية. ففي مصر مثلاً، يتعين على التلميذ أن يدرس إثني عشر عاماً قبل إلتحاقه بالجامعة. وعلى ذلك كان على التلاميذ في مثل حالتي أن يدرسوا عاماً دراسياً إضافياً ليتمكنوا من الالتحاق بالجامعات المصرية. لذلك التحقت بمدرسة خاصة في عمان، بعد تخرجي من المدرسة الثانوية، لدراسة سنة إضافية، حتى أستطيع الإلتحاق بإحدى الجامعات المصرية.

❖ ❖ ❖

إن من أمتع الأوقات أثناء المرحلة الثانوية كانت الرحلات خارج المدرسة، بل وخارج عمان. كان يذهب في هذه الأنشطة إما صف بمفرده، أو عدة صفوف مع بعضها البعض. في فصل الشتاء كنا عادة نذهب إلى البحر الميت، حيث الجو دافئ هناك. كنا نذهب في الصباح الباكر ونعود في المساء في نفس اليوم، متأخرين بعض الشيء. أما في فصل الربيع، عندما يكون الجو معتدلاً، وكنا نذهب إلى رام الله وغيرها من مدن الضفة الغربية.

ومن الذكريات الممتعة الأخرى رحلتنا إلى مدينة جرش في الأردن. وهي ليست بعيدة عن العاصمة عمان. هناك يوجد آثار

ذات قيمة من العصر الروماني. أعمدة مرتفعة، ومدرج دائري وغيرها، كل ذلك كان يجعلنا نتأمل في التاريخ للحظات. وكان يحيط بهذه الآثار العديد من الأحراش توجد فيها بعض الينابيع الباردة. وهناك تحت ظلال الأشجار كنا نستمتع بترديد الأغاني الوطنية ورقص الدبكة وأكل ما لذ وطاب.

❖ ❖ ❖

أيام البحث

تفتحت عيناي على السياسة أيام المرحلة الثانوية. حيث وقعت أحداث عديدة هامة فيما بين أعوام 1954 و 1959. كان أحد هذه الأحداث قيام حلف بغداد. وقد ظهرت في الأردن حركة وطنية قوية ضد هذا الحلف. وحتى ذلك الوقت، كانت الحكومة الأردنية موالية للسياسة البريطانية. وكان قائد الجيش والعديد من كبار الضباط في ذلك الوقت من البريطانيين. وقد قام الملك حسين بن طلال بطرد قائد الجيش والضباط البريطانيين عام 1956. وتم تعريب الجيش الأردني، وإقامة حكومة وطنية.

وشأن آخر، هو حرب السويس، و إعتداء كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، حيث وقف الأردنيون وجميع العرب، ضد هذا الاعتداء وكانت الحركة القومية العربية في ذلك الوقت في أزهى أيامها.

كانت سنوات الخمسينات في القرن العشرين هي فترة النضال للإستقلال الوطني. وقويت حركات التحرير، ليس فقط في العالم العربي بل كذلك في أسيا وإفريقيا. وكانت مصر أكثر من غيرها مركزاً لهذه الحركات في العالم العربي. وجاءت الناصرية التي قلبت نظام الحكم الملكي في مصر عام 1952 بقيادة جمال عبد الناصر، و أممت قناة السويس عام 1956. وما عدوان بريطانيا وفرنسا وإسرائيل الثلاثي على مصر إلا رداً على تأميم قناة السويس.

كان الرئيس جمال عبد الناصر في هذا الوقت هو الزعيم العربي الذي حرك قلوب ملايين العرب. لم تكن الحركة الناصرية قد تبلورت بعد، إلا أنها نجحت في كسب قلوب كل الناس في العالم العربي. إشتهر الرئيس جمال عبد الناصر بخطبه الجماهيرية، مع أنه كان كثيراً ما يستخدم اللغة العربية باللهجة المصرية الدارجة. وأما خطبه التي عادة ما كانت تستمر لساعة أو لساعتين أو أكثر، فكانت أول ما يُذاع في محطات الإذاعة. وقد إعتاد كل الناس في الوطن العربي على الإستماع إلى هذه الخطب.

وعندما وقعت حرب السويس خطب الرئيس جمال عبد الناصر في الجامع الأزهر خطبة شهيرة ردد فيها شعار "حنحارب ... حنحارب" وقد حرك بقوة قلوب الملايين من الجماهير العربية. كان هذا هو المناخ العام للجماهير العربية في هذه الأيام. كانت هناك

بعض الدول العربية تمنع الجماهير العربية من الإستماع إلى خطب عبد الناصر المذاعة، إلا أن الجماهير كانت تستمع إليها خلف الأبواب المغلقة.

❖ ❖ ❖

في هذه الأجواء الحماسية الملتهبة بدأ التدريب العسكري في مدرستنا وغيرها من المدارس في الأردن احتجاجا على العدوان الثلاثي على مصر المكون من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. لقد كانت تعبئة عسكرية أملتها الجماهير. لقد حزنت حزناً شديداً عندما أخبرني المدرب أنني قصير جداً وصغير جداً ولا أصلح للتدريب العسكري، حيث أن طول البندقية كان أقصر قليلاً من طولي!!

إلا أنني شاركت بنشاط في التظاهرات التي نظمت ضد حلف بغداد وضد العدوان الثلاثي على مصر. كانت هذه المظاهرات تنظم يوماً بعد آخر، حيث أخذ التلاميذ والطلاب، وخاصة طلاب وطالبات المدارس الثانوية، على عاتقهم قيادة الجماهير في هذه المظاهرات.

لقد شاركت التلميذات والطالبات كذلك في هذه المظاهرات التي كانت تبدأ عادة في الصباح تتقّدمها الطالبات، وإذ إعتاد النشطون من الطلاب الذهاب إلى مدارس البنات لدعوتهن للمشاركة في التظاهرة. وكانت معظم الطالبات تنضم إلى

المظاهرات التي كانت تتحرك نحو وسط المدينة. كانت البنات يتقدمن المتظاهرين، ويعملن كدرع بشري لهم، ذلك أنه في المجتمع العربي يخجل العسكريون ورجال الشرطة ويترددون في ضرب الإناث، وبهذه الطريقة كانت الطالبات تحمي المتظاهرين بالسير في مقدمة المظاهرة.

ومع أنني كنت صغير السن والحجم إلا أنني كنت أشارك في هذه المظاهرات وكنت أجيد قذف الحجارة فيها.

كان كل الطلاب الذكور يشاركون في المظاهرات التي كانت عادة ما تبدأ من المدارس، وتتوجه مباشرة إلى وسط المدينة. كانت مدرستي نشطة جداً في إشعال فتيل المظاهرات والإشتراك فيها.

كان طلاب مدرستي نشطين في الإنضمام إلى الأحزاب السياسية، شأنهم شأن المدرسين. وعليه كانت هناك علاقة قوية وممتازة بين المدرسين والطلاب.

كان التلاميذ والطلاب عادة ما يطلق سراحهم بعد بضعة أيام من إعتقالهم، إلا أن ذلك لم يكن ينطبق على المدرسين. حيث كان من الصعب إطلاق سراح المدرسين خاصة الشيوعيين واليساريين والقوميين أو من كانوا ينتمون إلى أحد الأحزاب الأصولية الإسلامية مثل حزب التحرير مثلاً. وإني لأتذكر العديد من المدرسين الذين سجنوا، منهم من كان شيوعياً ومنهم من كان من حزب التحرير الإسلامي.

لقد كان لدينا حس سياسي متقدم، مع أننا كنا لا نزال صغاراً. لقد كنا قادرين على التحليل السياسي الدقيق، ليس فقط بالنسبة للشئون السياسية المحلية بل كذلك بالنسبة للشئون السياسية العالمية. كنا نقوم بالمناقشات الممتعة، وكنا على دراية كاملة بنقاط إتفاق و إختلاف الأحزاب السياسية المختلفة. كنا قادرين على التعرف على الإنتماء الحزبي لأي فرد وذلك بالتحدث معه لبضع دقائق فقط.

كانت المعلومات والأخبار السياسية تنتشر بسرعة في المدرسة، كما كان يتم تداول المنشورات السياسية السرية. وكم من مرة عثرت على واحد من هذه المنشورات السرية في مكان جلوسي في الصف. وعادة ما كنا ننظر نظرة سريعة على هذه المنشورات ثم نرميها بعيداً أو نضعها في جيوبنا لنستطيع قراءتها بعناية فيما بعد.

على الرغم من أن إنشاء الأحزاب السياسية كان غير شرعي في ذلك الوقت، فإنه كان هناك العديد من الأحزاب السياسية التي تعمل تحت الأرض.

كانت الأحزاب السياسية والقومية والوطنية تساند الناصرية. من هذه الأحزاب، حزب البعث العربي الإشتراكي وحركة القوميين العرب. هذه الحركة هي التي أتى منها الدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. إن حركة القوميين

العرب حركة قومية وطنية تنادي بالوحدة العربية، ولم تكن الحركة في ذلك الوقت قد إتخذت الفلسفة الماركسية - اللينينية نهجاً لها.

أما المجموعات التي كانت تنتمي إلى الأصولية الإسلامية، فقد كانت ضد الناصرية. كان هناك مجموعتان إحداها هي جماعة الإخوان المسلمين، والتي كانت نشطة كمنظمة إجتماعية دينية أكثر من كونها حزباً سياسياً. أما المجموعة الأخرى فقد كانت مجموعة أصولية تسمى حزب التحرير الإسلامي.

كما كان هناك الحزب الشيوعي. كانت هنا مشكلتان تواجهان أي حزب شيوعي عربي. إحداهما أن من يؤمن بالشيوعية لا يجوز أن يؤمن بالدين. وغالباً ما كانت هذه نقطة البداية في حواراتهم لتجنيد مساندين واستقطاب أعضاء جدد، لذلك كان من الصعب عليهم تجنيد الكثير من الناس. والمشكلة الثانية هي أن الأحزاب الشيوعية في كل الدول العربية كانت تتبع سياسياً خط موسكو، ويعني ذلك أنهم يقبلون بوجود دولة إسرائيل. لذلك فإن قلة من العرب والفلسطينيين هم الذين كانوا يساندون الأحزاب الشيوعية. فكون الفرد شيوعياً يعني أنه يعترف بدولة إسرائيل، ولهذا السبب لم يستطع الحزب الشيوعي أن يجند الكثير من الناس.

إضافة إلى كل ذلك فقد كانت تؤسس وتقام بعض الأندية الرياضية ولكن بخلفية سياسية.

أما فيما يتعلق بحرب السويس والعدوان الثلاثي على مصر، فإن كل الأحزاب كانت ضد هذا العدوان.

كان في المدرسة أعضاء من مختلف الأحزاب السياسية ومعظم الطلاب كانوا ينتمون لحزب أو لآخر. بدأت في التفكير لأي حزب سأنضم وألتحق، إلا أنني في ذلك الوقت لم أكن قد كونت رأياً محدداً.

كان الناس يتحدثون عن فلسطين. لقد علمتني أسرتي معنى الوطنية. ومع ذلك فإنني أعتقد أن ذلك الوقت كان وقت البحث بالنسبة لي وللعديد من الفلسطينيين، البحث عن هوية فلسطينية وعن طريق لتحرير فلسطين.

عندما كنت في الصف النهائي للمدرسة الثانوية كانت الثورة الجزائرية قد وصلت إلى قمتها. هذه الثورة أثرت فينا تأثيراً كبيراً. كنا نقوم في المدرسة بجمع مواد التضامن لمساندة الثورة الجزائرية. كما كان الطلاب يقدمون على مسرح المدرسة المسرحيات الوطنية.

كان من أكثر المرات إثارة هي تلك المسرحية التي كتبها أحد المدرسين في المدرسة، مستمدة من نضال الثورة الجزائرية. ظهر فيها مناظر للسجن والتعذيب التي تعرضت له المناضلة الجزائرية هي "جميلة بوحيرد". وهي جان دارك العرب كما أطلق عليها. ولما

كانت مدرستنا مدرسة للبنين فقد إستعنا بإحدى الطالبات من مدرسة للبنات!!

تحتل الثورة الجزائرية مكانة كبيرة من أساسات فكري السياسي ومن تكوين وطنيتي.

فيما بعد، ظهر الكفاح والنضال لتحرير فيتنام. وفي نفس الوقت بدأ النضال والكفاح لتحرير كوبا. ظهر قادة مثل كاسترو وشي جيفارا. لقد ساعدت وأثرت هذه الحركات التحريرية ونضال قادتها في تشكيل شخصيتي الوطنية.

إلا أنني لم أهتم كثيراً بالخلفيات الأيديولوجية لهذه الحركات، ذلك لأن النضال الثوري في حد ذاته كان هو القوة الدافعة لمشاركتي في الكفاح والنضال.

فالوجه الإسلامي للثورة الجزائرية والوجه الشيوعي للثورة الفيتنامية والوجه الدولي في حالة شي جيفارا، كل هذه الوجوه كانت مختلفة في طبيعتها، إلا أن كلاً منها كان له تأثير في نفسي.

❖ ❖ ❖

ومن الناحية التاريخية أعتقد أن الفترة من 1950 إلى 1960 يمكن أن يقال إنها الفترة التي شكلت شخصيتنا وتفكيرنا في تشكيل أنفسنا كفلسطينيين بوجه عام، أثرت وفيّ شخصياً.

في تلك الأيام كان ياسر عرفات، الذي أصبح فيما بعد قائداً ورئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، طالباً في جامعة القاهرة، وكان نشطاً جداً في تنظيم الطلاب الفلسطينيين في مصر. ولقد توقف عن الدراسة بعض الوقت إذ شارك في حرب السويس وإنضم لحركة الفدائيين.

جرت عمليات فدائية قبل وبعد أعوام 1956، وبدأت الحرب الفدائية في معظمها من قطاع غزة. ولقد أثرت هذه العمليات كثيراً فينا. وساعد هذا النضال في تشكيل إتجاه مستقبل الثورة الفلسطينية.

❖ ❖ ❖